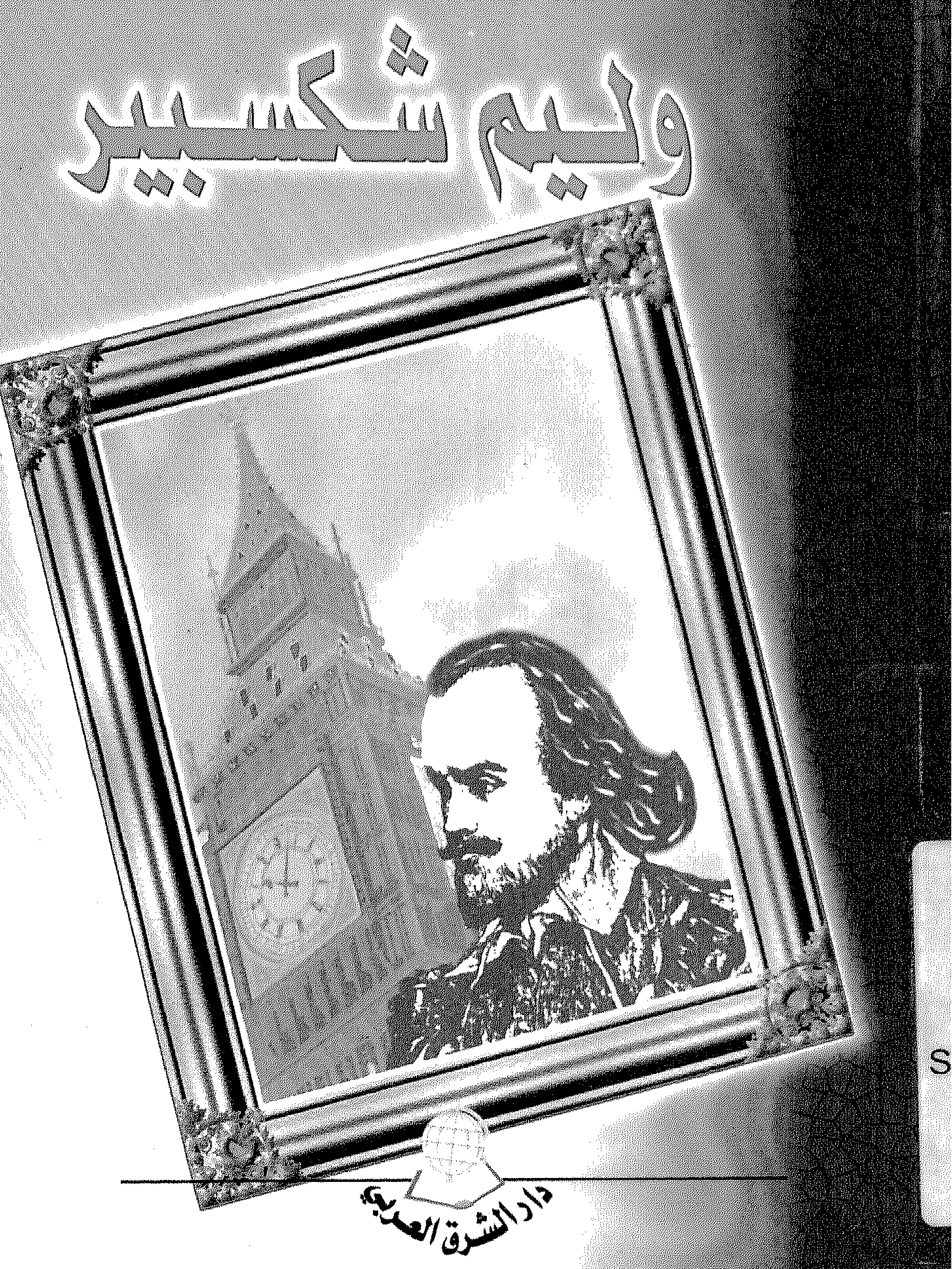
أعلام مبرزون
من الشرق والغرب

وليم شكسبير



وليم شكسبير

1564 ــ 1616 م

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرّزين من الشرق والغرب

---

1 ـ الإسْكندَر الأكبـــر 2 ـ هنيبَعـــــــل
3 ـ أبو العـــلاء المعـرّي 4 ـ ابـــنُ بطُّوطـــة
5 ـ ابـــنُ خلـــدون 6 ـ كريسْتوف كولومبوس
7 ـ وليَــم شكسْـــبير 8 ـ نــابوليون بُونــابرت
9 ـ ليــون تُولسْــتوي 10 ـ المهاتما غانْـــدي

كتبها وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

أعــلام مــبــرزون
من الشرق والغرب

وليم شكسبير

1564 ــ 1616 م

دار الشرق العربي
حلــب ـ ســوريــة ـ ص.ب:415
بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: 11/6918

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبها وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي

حلب ــ سورية ــ ص.ب: 415

الطبعة الأولى 1998 م - 1419 هـ

الطبعة الثانية 2000 م - 1421 هـ

الطبعة الثالثة 2002 م - 1423 هـ

طبع في : المطبعة الحديثة ـ حلب

المقدمة

يتّفقُ المؤرِّخونَ الغربيُّـونَ علـى اعتِبـارِ **سُقوطِ القُسطنطينيَّةِ** في أيدي الأتْراكِ العُثمـلنيين عامّ 1435م **بدايةً لِعصرِ النهضةِ في أوربَّـةَ**، إذ انتقلتْ كُنوزُ التُّراثِ اليُونانـيِّ والرُومـانيِّ مـع العُلماء الذينَ كانُوا يُقيمونَ في القُسطنطينيةِ إلـى إيطالية وغيْرها مِنْ بِلادِ الغرْبِ التـي نَزَحـوا إليْها، فكانتْ مُنْطلقاً لِنهْضةٍ فكريةٍ كبيرةٍ، وبدأتْ ثقافةُ اليُونانِ والرومانِ، الصادرةُ عن تُراثِهِـما المنقولِ إلى أوربَّةَ، تُضيءُ العُقولَ وتبُـثُّ فـي النُّفوسِ روحاً جديدةً تتمـرَّدُ علـى السُلُطاتِ الدينيّةِ، وتُهاجِمُ الكنيسةَ التي كانتْ آنذاك تُمْسِـكُ

بزمامِ الفِكْرِ وتُوَجِّهُهُ حسْبَ مشيئتِها، وقد تمثّلتْ هذه الرُّوحُ الجديدةُ الناقِمةُ في عددٍ من المُصلحينَ الدِّينيينَ الذين دَعَوا إلى تطهيرِ العقائدِ، وخرجوا على السُّلْطةِ البابويَّةِ، **وانقسمَ المسيحيونَ طائفتيْنِ: الكاثوليكِ** الذين ظلُّوا يحتفظونَ بالعقيدةِ القديمةِ، **والبروتستانتِ** الذين كانوا يُطالِبونَ بالتجديدِ والإصْلاحِ، وكانتِ الغلَبَةُ في إنكلترة لهذهِ الطائفةِ الثانيةِ، **وشملتْ البُلْدانَ الأوربيَّةَ كلَّها موْجةٌ عارِمةٌ من الشُّعورِ القوْميِّ**، إذْ أصبحتْ كُلُّ أمَّةٍ تنْتبِهُ إلى نفسِها وقوميتِها وتحرص على استقلالِها، وظهر أثر ذلِكَ كلِّهِ في الأدبِ في الأعْوامِ الأخيرةِ مِنْ

القرنِ السادسَ عشر، وفي أدبِ شِكسبير في تلكَ الحِقبةِ نجدُ صورة تُمثِّلُ بوضوحٍ وجلاء الروح القوميَّةَ الإنكليزيَّةَ والشُّعور القويَّ في نفوسِ الإنكليزِ بقوميَّتِهِمْ المُستقِلَّةِ، وذلِكَ هو الطابعُ المميّزُ لِعصْرِ الملكةِ إليزابيث، وهو عصْرُ شكسبيرَ نفسهِ، الذي كان عصْراً زاهِراً **بالنهْضةِ التي شملتْ أوربة** بأسْرِها، والتي كانتْ من أبرزِ مُقوِّماتِها أربعةُ أمورٍ:

1 ــ **ثقافةٌ جديدة** موْصولةٌ بكُتُبِ التُراثِ اليونانيِّ والرُّومانيِّ..

2 ــ **وحركةُ إصْلاحٍ دينيٍّ** تدعو إلى تطْهيرِ العَقيدةِ..

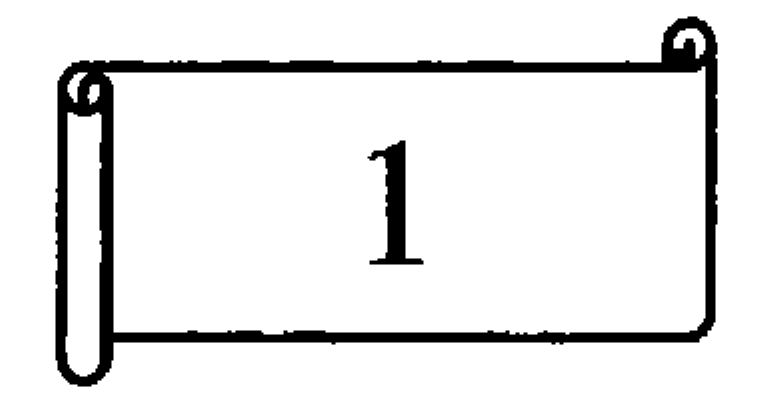
3 ـ وشعورٌ **بالقوْميّةِ** يُميِّزُ أُممَ أوربَّةَ بعضَها من بعضٍ..

4 ـ **وتطلُّعٌ لاستكشافِ آفاقِ الأرْضِ والسماءِ** في مغامراتِ الرَّحالةِ والملاّحين والفلكيّينَ لِمعْرِفةِ المجْهولِ!

جميعُ هذه المقوِّماتِ نجدُها بارزة في مُؤلَّفاتِ شكسبيرَ، والحقُّ أن شاعِرَ الإنْكليزِ الأعْظم هذا هُوَ الثمرةُ الكُبْرى لثقافةِ عصْرِهِ المُزْدهِرةِ، بكُلِّ خصائصِها ومُميِّزاتِها، كما سَنرى من خلالِ عرضِنا لسيرةِ هذا العبْقريِّ المبرِّزِ الخالدِ.

الباب الأول

نشأة شكسبير وتكوينه الثقافي



ولد **وليم شكسبير** في إنكلتره، في بلدة صغيرة تدعى ستراتفورد، تقع على نهر آفون ويحيط بها ريف رائع فاتن، فالمروج تحف بها، والتلال، والوهاد المكسوة بالخضرة الدائمة تمتد من حولها، وتجعل تلك المنطقة الريفية عامرة بألوان النشاط: فرعاة الماشية مع قطعان الضأن منتشرون فيها والفلاحون يزرعون ويحصدون في أرض سخية معطاء، والصيادون لا يكفون

عَنْ صَيْدِ طَيْرِها وحَيَوانِها. أمَّا البَلْدةُ نفسُها فلم تكُن قَريةً ضئيلةً مُنعزلةً في تِلْكَ المنْطقةِ الرِّيفيةِ الجَميلةِ، بلْ كانتْ **مدينةً نشيطةً تَمُوجُ بِرجالِ التِّجارَةِ والأعْمالِ وأصْحابِ الأراضي** المُوسرينَ، وكانَ عَددٌ مِنْ أهلِها قَدْ غادَروها إلى لُنْدنَ لِيشقُّوا لأَنفسهمْ طُرق مُستقبلهم فيها، فأَصابُوا مِنَ النَّجاحِ والغِنى والنُّفوذِ حُظوظاً كَبيرةً حَتَّى إنَّ واحداً مِنْ تُجَّارِ ستراتْفوردَ النازحينَ إلى لُنْدنَ صارَ عُمْدةً لِلعاصِمةِ الإنْكليزيَّةِ.

في هذهِ المدينةِ الريفيةِ وُلِدَ شكسبيرُ في الثالثِ والعشرينَ من نَيْسان عامَ 1564 م، في بيتٍ من بُيوتِها، في شارعِ (هَنْلي) يَقْصِدُهُ

الزائرونَ من أرجاء الدنيا ألوفاً في كُـــلِّ عـــامٍ، وفي كنيسةِ هُولى تِرينيتـــي (كَنيســـةِ الثّـــالوثِ المُقَدَّسِ) في هذه المدينةِ عُمِّـــدَ ولْيَـــم شكســـبير وسُجِّلَ اسمُه في سِجلِّ التَعْميـــــد فيـــها، وهـــي الكنيسةُ التي ستَضُمُّ رُفاتَهُ بعدَ مَوْتِهِ، وســـيَصيرُ قَبْرُهُ فيها مَقْصِدَ الزُوّارِ الوافدينِ علــــى مَسْــقَطِ رأسِ الشاعرِ الإنكليزيِّ الأعظـــمِ، مـــن جميـــعِ أَصْقاعِ الدُّنيا.

لم يكُنْ **جُونُ شكسبيرُ والدُ وِلّيَمَ** من أَبْنـــاءِ سْتْراتفُوردَ إذ كان أبوه ــ جَدُّ وِلْيَـــمَ ــ واســـمه ريتشاردُ شكسبير، يملكُ مَزْرَعةً في "**إسْـنترَفيلْد**" في شَمالِيِّ ستراتفوردَ، ومنها نَزَحَتِ الأسرةُ إلـــى

ستراتفوردَ، يومِ كانَ والدُ وِلْيَمَ في شَرْخِ شَبابِهُ، وكانَ يومَذاك يَمْتَهِنُ صناعةَ القُفّازاتِ وغيرِها من المَصْنُوعاتِ الجِلْديةِ الدقيقةِ، فشاعرُنا الأعظمُ إذاً هو **سَليلٌ لأسرةٍ من مُلاّكِ الأَرْضِ،** وقدِ انْصَرفَ أبوه بعدَ استنزافِ أملاكِ الأسرةِ إلى الصِّناعةِ، وزَعمَ بعضُ الرواةِ أَنّه كانَ يُتاجِرُ في الصُّوفِ إلى جانبِ صِناعةِ الجِلْدِ، كما زَعمَ آخرون أنَّه كان قَصَّاباً، وهو زَعْم يُفَنِّدُه الباحثون ويَرفُضُونَه.

وأما أمُّ **وِلْيَمَ السيدةُ "ماري آرْدِنْ"** فهيَ ابنةُ تاجرٍ غنّيٍّ كانَ يُقيمُ في بلدةٍ قريبةٍ من ستراتفوردَ، ويُجمعُ الباحثونَ على أَنّه سليلٌ

لأسرةٍ من أَمْجَدِ الأسَرِ وأعْرَقِـها فـي انكلـترةَ وَرِثَ الضِّياع والبَساتينَ، فأَوْصى بها لِصُغْـرى بناتِه ـ أمِّ ولِيَمَ ـ ولكنَّها كُلَّها ضَاعَتْ رهينـةً لِدَيْنٍ، فلَمْ تَفُزِ الأمُّ التي أَنْجَبَتْ أعظـمَ شُـعراءِ العالمِ مِنْ ثَرْوَةِ أبيها بِطَائلٍ، ولولا ضَياعُ تلـكَ الثروةِ الكبيرةِ لَكانَ وليمُ شكسبيرُ نشأَ في خَفْـضٍ وَرَفاهِيَةٍ من العَيْش، ولَكانَتْ سِيرةُ حياتِـه فـي طُفُولتِهِ وتكْوينِهِ وشَبابهِ سِيرة أخْرى!

كان **ولِيَمُ ثالثَ أبناءِ أبيه**، فقد رُزِقَ جُـونُ شكسبيرُ قبلَهُ ابنتَيْنِ تُوُفِّيَتا صغيرتَينِ، ثـم رُزِقَ بعدَ ولِيَمَ ثلاثةَ صِبْيانٍ هُم جلـبَرْتُ و ريتشـاردُ وإدْمُوندُ ثم رُزِقَ بعدَهم ابنتَيْنِ، وهكـذا كـبرَتْ

الأسرةُ، ولم يكُنْ كَسْبُ مُعِيلِها كبـيراً، فظـلَّ لا يَمْلِكُ من المالِ ما لا يَزيدُ عَنْ حاجَتِـهِ، علـى الرغمِ من كَثْرةِ نشاطِهِ وبَراعتِـه فـي عَمَلِـه وصناعَتِه، ويبدو أَنَّ حالتَه الماليةَ قد تحسَّنَتْ بعدَ ميلادِ ولِيمَ، إذ اختيرَ فـي عـام 1565 م عُمْـدَةَ للمدينةِ ثم رئيساً لِبَلَدِيَّتِها عـامَ 1568 م، وبذلـك **أصبحَ جُـون شكسـبيرُ مـن أَعْيـانِ مدينـةِ ستراتفورد**َ، وغَدا مَشْهُوراً فـي بَلْدتِـهِ وعَظُـمَ شَأْنُهُ، وازدادتْ حالُه مع الأيامِ تحسُّـناً، بِفَضْـلِ اجتهادِهِ وحُسْنِ إدارتهِ لأَعْمالِه، وثقةِ الأهلينَ بـهِ وتَقديرِهم إيّاه، وقد استطاعَ خِلالَ عَشْـرٍ مـن السَّنَواتِ أن يَرْفَعَ مُسْتَوَى مكاسِبِه، فظهَرَتْ عليهِ

مظاهرُ الغِنى والثَّراءِ، واشترى مَنْزِلَيْنِ في ستراتفُوردَ، وبَسَطَ الرجلُ يَدَهُ في الإنْفاقِ على أسْرَتِهِ، غيرَ أَنَّ الحالَ لم تَدُمْ على هذِهِ الصُّورةِ الزاهيةِ طويلاً، إذ لَمْ تَلْبَثِ الثروةُ التي نَعِمتِ الأسرةُ بِخيراتِها حِيناً أنْ تَبَدَّدَتْ وعادَتِ الأسرةُ إلى العُسْرِ والضيِّق، واضْطُرَّ والدُ وِلْيَمَ إلى رَهْنِ عَقارِهِ الذي اشْتَراهُ بِكَدِّهِ ونَشاطِهِ، لِيتمكَّنَ من الإنْفاقِ على أسْرَتِهِ.

2

قضى وِلْيَمُ شكسبيرُ **طُفولَتَـــهُ فـــي مَسْــقَطِ** رأْسِهِ في مدينةِ ستراتْفُوردَ الناعمةِ في أحْضـــانِ الرِّيف، وكانتْ طفولةً هادئةً مثلَ جميـــعِ لِداتِـــه الذينَ نَشَأوا في مِثْلِ تلكَ البَلْدَةِ الصَّغيرةِ، ويُرجِّحُ الباحثونَ في آثارِهِ المسرحيةِ وما فيها مِنْ صُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ لِلأَشْباحِ والجِنِّ والأَهْــوالِ المُرْعِبَــةِ أنْ يكُونَ الطفلُ الصغيرُ قد اســـتمعَ فـــي طُفولَتِـــهِ المُبكِّرةِ تلكَ إلى ما كانَ يُحْكى لِلصبيـــانِ قبـــلَ استسلامِهم لِلنومِ من قِصَصِ الجِـــنِّ والسَّـحَرَةِ وأشباحِ المَوْتى وأَهْوالِ اللَّيْــلِ والظَّــلامِ، وقــد استطاعَتْ تلكَ الحِكاياتُ أنْ تَتْرُكَ فـــي خَيـــالِ

الصبيِّ آثاراً قويّة، وقد أحسْن الشاعرُ فيما بعــدُ استغلالَها في مَسْرحياتِه أحسنَ استغلال.

وعندما بَلَغَ ولْيَمُ عامَه السابعَ أرسَلَهُ **أبــوه إلى المدرسةِ في استراتفُورد** لِيَقْضِيَ فيها قُرابــةَ ثمانيةِ أَعْوامٍ هي جِماعُ فَتْرَةِ تَحصيلِهِ المدرســي، في مَرْحَلَتَيْهِ الابتدائيــةِ والثانويــةِ لأنَّ الفَتــى سُيغادرُ المدرسةَ، بعد اشتدادِ العُسْــرِ والضِّيــق على أبيهِ، لِيَشارِكَ في الحياةِ العمليَّةِ، ولم يكُنْ قد أَتَمَّ يومَذاك عامَه الخامسَ عشَرَ، **والباحثونَ إلــى اليومِ حائرونَ في الاهْتِداءِ إلى مَصــادرِ ثقافــةِ الشــاعرِ العبقــريِّ** التــي تعكسُــها أشــعارُه ومسرحياتُه: ففي رواياتِ ولْيَمَ شكسبير اطِّــلاعٌ على أَدَبِ الأقدَمينَ فكيفَ تَيَسَّرَ لهُ ذلكَ كُلُّهُ **وهــو**

الذي لم يتم تعليمه الثانوي، ولم تتح له دراسة جامعية بعد ذلك!

يقول أحد الباحثين "إن اللغز الذي يحير حقا في حياة شكسبير العظيم هو عدم استقامة ما نعرفه عن ثقافته الرسمية مع أدبه العالمي المجيد الذي ينم عن علم مستفيض وعميق بتراث الأدب الإنساني، أغلب الظن في منابعه الأولى!!"

الشائع عن شكسبير أنه كان رجلا "**ربع متعلم أو نصف متعلم على أكثر تقدير**" فهو لم يتم تعليمه في المدرسة الثانوية لضيق ذات يد أبيه، وقد ترك المدرسة ليساعد أباه في عمله

وتحصيلِ عَيْشِهِ، ثُمَّ استغرقَتْهُ الحياةُ العمليَّةُ عـنِ الدراسةِ المُنْتَظَمةِ، **فكيفَ تَيَسَّـرَ لـهذا الرجـلِ الناقصِ الثقافةِ أن يُعلِّمَ نفسَه تعليماً رفيعاً** يُتيـحُ له أن يُنشِئَ كلَّ هذا الأدبِ العظيمِ الذي نجدُه في مسرحياتِه، والذي يَدُلُّ على فلسفةٍ عميقةٍ وثقافـةٍ واسعةٍ وذكاءٍ خارقٍ!

إنَّ في الأَمْرِ لُغْزاً يَنْبَغي حلُّهُ!

من هُنا انطلقتْ دراسـات تَزْعُـمُ أنَّ وراء المسرحياتِ المنسوبةِ إلى شكسـبيرَ شـخصياتٍ أخرى هي التي أَلَّفَتْها أو شاركَتْ في تأليفِها، كما انطلَقَتْ **مَزَاعِمُ** أخْـرى تقـولُ إن كثـيراً مـن مَسرحياتٍ شكسبيرَ كانتْ موجـودة فِعْـلاً وأنَّ

شكسبيرَ تناولَها بالإِصْلاحِ والتَّنْقِيحِ بِحَيْثُ جَعَلَها في حالَتِها المعروفةِ الآنَ، أو أنَّهُ أعَادَ صِياغتَها على طريقتِه، وأنَّ هذا هو الذي مَكَّنَهُ من تَحْقيقِ هذا الإنتاجِ الضخمِ ولو أنّه كانَ هْو مُبْتِكرَ هذه المسرحياتِ مِنْ أصُولِها لَمَا تمكّنَ من إنْجازِ هذا المحصولِ المَسرحيِّ البالغِ الوَفْرَةِ!

والحقُّ أَنَّ ثقافةَ شكسبيرَ التي أعْطَتْ مسرحياتِه، تَغْدُو لُغْزاً مْحَيِّراً عندما نَقْبَلُ الآراء الشائعةَ عن نُقْصانِ ثقافتِه وتعليمِه، وهي آراء يَسْخُو بها المُؤرِّخُونَ لِحياةِ العُظَماءِ لكي يَفْتِنُوا بها القُرّاء، فَرَجُلٌ "رُبْعُ مُتَعَلِّمٍ" مثلُ شكسبيرَ يُنتجُ هذا الأدبَ الشامخَ الخالدَ أمرٌ يَسْتَثيرُ إعْجابَ

القُرّاءِ، وقصةُ العظيمِ لا تكون فَاتِنَةً جَذْابَة إلاّ إذا ارْتَقَتْ به من الحَضيـضِ الأسـفلِ إلـى الأَوْج الأعلى: فهذا القَصّابُ ابنُ القَصَّابِ يُصبِحُ أكـبرَ عبقريَّةٍ شعريةٍ في الدُّنيا، وهذا الرجلُ النـاقصُ الثقافةِ يُنْتِجُ أعظمَ أدبٍ غَنِيٍّ بالفلسـفةِ والثقافـةِ والذكاء! تناقُضات تستثيرُ إِعْجابَ النـاسِ مـن القُرّاء وتُرْضي أَذْواقَهم!

إن **ثقافةَ شكسـبيرَ الحقيقيـةَ هـي مـا تكْشِفُ عنهُ آثـارُه وأعمالُـه**، وقـد اسـتطاعَ العبقريُّ أنْ يُحَصِّلَ هذه الثقافـةَ مـن دراسـتِهِ الرسميةِ أولاً ثُمَّ من مُتابَعةِ القِـراءةِ، وتعليـمِ نفسِه بنفسِه، والكتابُ خيرُ مُعَلِّمٍ كمـا يَقُولـون،

وفي الدُّنيا كثيِّر من الْمُبَرِّزين في كُلِّ أمـــةٍ مـــن أمَمِ الأَرْضِ، عَلَّمُــوا أنفسَــهم بأَنْفُسِــهم، بعـــدَ دراستِهم الأَوَّلِيَّةِ على مُعَلِّميهم، حتى بَلَغُوا أَرْفَـــعَ الدَّرَجاتِ.

3

هناكَ أدِلَّةٌ في أدَبِ شكسبيرَ على أنّه كــــان **مُطَّلِعــاً علــى أَهَــمِّ آثــارِ الــتُراثِ اليونـــانِّي والرومانِّي**، وقد كانَ أكثرُ ذلك التراثِ في عَصْرِ شكسبير غيرَ مُترجمٍ إلى الإنكليزيةِ، ولا ســـبيل إلى قراءتِهِ إذ ذاكَ إلاّ في اليُونانيةِ أو اللاتينيـــةِ والمعروفُ أن شكسبيرَ تعلَّمَ اللاتينية والإغريقيــةَ (اليُونانيةَ القَديمةَ) فـــي مدرســـةِ سـتْراتفُوردَ، وطالَعَ أجزاء من الأَدَبِ اللاتينيِّ كانَ لها أبلـــغُ الأثرِ في تكْوينِهِ الأدبيِّ، ومهما يكُنْ حَظُّ شكسبيرَ من هاتَيْنِ اللُّغتَيْنِ قليلاً فإِن مسرحياتِه فيها الدليلُ

على قِراءتِه للشاعرِ الرّوماني (**أوفيد**) وتَأَثُّرِهِ بـــهِ واستعارتِه لِبَعْضِ شخصياتِهِ من أَدَبِهِ، كمـــا أنَّ في مسرحياتِهِ أَثَراً لآخَرينَ مـــن أعـــلامِ الأدبِ اللاتينيِّ مثلِ "**بُلوتس**" و"**جوفْنال**" مِمّا يُؤكِّدُ لنا أنَّ الفتى عندما غادرَ ثانويةَ ستراتفوردَ كان علــــى إلْمامٍ دَقِيقٍ ووَاسِعٍ باللُّغةِ اللاتينيةِ وأَعْلامِ أدبِها.

والباحثونَ فـــي أدبِ شكســبيرَ **يُرجِّحُـونَ معرفةَ الشاعرِ بمبادئ عددٍ من اللُغاتِ الأخْــرى كالفرنسيةِ والإيطاليةِ**، مِــنْ خِـلالِ العِبـاراتِ المنثورةِ من هَاتَيْن اللغتينِ في مسرحياتِه ويبــدو أنَّ احتكاكَ شكسبيرَ ببعضِ الجَالياتِ الأجنبيةِ في لُنْدُنَ، بعدَ انتقالِهِ إليها أتاحَ له مَعْرِفــةً بمبــادئِ

لُغاتِها، ويَظُنُّ بعضهُم أنَّ شاعرَنا زارَ عَدَداً من البلادِ الأوْربية، ومنها فرنسةُ وإيطاليةُ، وأفادَ من تلكَ الزياراتِ مَعْرفتَه بمبادئِ تلكَ اللُّغات!

والحقُّ أن سِتاراً من **الغُموضِ يُغَطّي بعضَ الفَتَراتِ من حياةِ شكسبيرَ**: كهذه الفترةِ التي تلتْ تركَهُ لِلمدرسةِ الثانويةِ في ستراتفوردَ لِيُساعِدَ أباه في ضائقَتِهِ الاقتصاديةِ، ويبدو أنَّه لم يَنْقَطِعْ عن تعليمِ نفسِه بِمُوالاةِ القِراءةِ والتَحْصيلِ، ومَسرحياتُه تُبيحُ لنا أنْ نَفْتَرِضَ أنه كان في صَدْرِ شبابِه مَرِحاً كثيرَ التَّجْوالِ في الحُقولِ، عميقَ الإطِّلاعِ على حياةِ الرِّيفِ، ففي مسرحياتِه ذِكْرٌ للجيادِ وكِلابِ الصَّيْدِ والغِزْلانِ والصُّقورِ،

مما يُؤكِّدُ لنا أَنّه عاشَ في أَحْضَانِ الطبيعةِ زَمَناً، وأكتسبَ منها تجارِبَ أَحْسَنَ استغلالَها في رِواياتِه بعدَ ذلكَ.

وهُناكَ روايةٌ تتحدَّثُ عن اشتغالِ شكسبيرَ في هذهِ المرحلةِ من حياتِهِ بالتدريسِ في مدرسةٍ ريفيّةٍ، غيرَ أن الباحثينَ لا يجدون دَليلاً يُؤيِّدُ صحةَ هذه الروايةِ أو يَنْفِيها، ومسرحياتُ شكسبيرَ إذا عَرَضَتْ لِتصويرِ أَحَدِ المعلِّمينَ صَوَّرَتْهُ على هيئةٍ تدعو إلى السُّخْرِيَةِ، وتَبْعَثُ على التحقيرِ والزِّرايةِ، مما يَدْفَعُ إلى الظنِّ بأن شكسبيرَ لم يكُنْ يُضْمِرُ لمهنةِ التعليمِ احتراماً أو تَقْديراً.

الباب الثاني

كِفاحُ شكسبير في الطّريقِ إلى القمّةِ

1

غادَر شكسبيرُ مدرستَه الثانويةَ في ستراتفوردَ عامَ 1578 م وهو دُونَ الخامسةَ عشْرَةَ من سَنَواتِ حياتِه ليَبْدأً كِفاحَه العمليَّ إلى جانبِ أبيهِ، عَوْناً لهُ في عُسْرِهِ وضيقِ ذاتِ يدِه، وقد أمْضى الفتى سَبْعَ سنواتٍ في بَلْدَتِهِ قَبْلَ أنْ يُغادِرَها عامَ 1585 م إلى لُنْدُنَ، حينما أدركَ أنَّ ستراتفوردَ لَنْ تَستَطيعَ تحقيقَ مطامِحِه الكبيرةِ في المُستقبلِ الذي يَحلمُ بأمجادِه لِنفسِه، وقد

أَتَاحَتْ لُندنُ لِلشاعرِ العبقريِّ خِلاَل سَبْعِ سنواتٍ أخرى أنْ تُوصِلَهُ إلى النجاح، فإِذا هُو عام 1592م نجمٌ سَاطِعٌ وعَلَمٌ من أَعْلامِ المَسْرَحِ والتمثيلِ في العاصمةِ الكبيرةِ، وسنُحاولُ في هذا الباب أَن نَتَبيَّنَ خُطُواتِ كِفاحِهِ في طريقهِ إلى القمةِ مُنذ تَرْكِهِ المدرسةَ حتى أصبحَ عَلَماً بارزاً فوقَ مَسارحِ لُنْدُنَ.

والباحثون يَتَحدَّثُونَ عنِ الغُمُوضِ الذي يكتَنِفُ هذه المرحلةَ من حياةِ شاعرِنا العظيمِ، وقد أَشَرْنا إلى ذلكَ من قَبْلُ، فنحنُ لا نعرفُ كيفَ أمضى أعوامَه في ستراتفوردَ بعدَ تَخَلِّيهِ عن المدرسةِ إلى أنْ بَلَغَ الحاديةَ والعشرينَ من

عُمْرِه، وهناكَ روايات كثيرة ومُتَناقِضَةٌ تجعلُنا في يَأسٍ من أَنْ نعلمَ عِلْمَ اليقينِ ما كانتْ صِناعتُه التي يَرْتَزِقُ منها حينَذَاك، **فهل كانَ يعملُ في التدريسِ أم في صناعةِ الجُلودِ، أم في بَيْعِ اللُّحومِ!! أم كان يَعملُ في الزراعةِ ورَعْيِ الماشيةِ** فيقضي أيامَه في حِراسَةِ قِطعانِها في الحُقولِ والمراعي الخَصِيبةِ التي تُحيط بستراتفوردَ مِنْ كُلِّ جانبٍ! بعضُ الرواياتِ تقولُ إنه كانَ يُمضي نِصْفَ نهارِه الأَوَّلَ في مُساعدةِ أبيهِ في بَيْعِ اللَّحْمِ والزِّراعةِ، ويقضي نِصْفَهُ الثاني في رِعايةِ بِضْعِ بَقَراتٍ وَهْيَ تَرْعى في الحُقولِ القريبةِ، حيثُ كانَ الفتى الحالِمُ يَتركُها تَرْعى، بينما يَنْصَرِفُ هو إلى قِراءةِ كتابٍ

يحمله، أو كتابة بعض المقاطع الشعرية التي كانت موهبته المتفتحة تجود بها، حتى إذا انقضى النهار، وغربت الشمس، عاد الفتى إلى داره لينصرف بعد العشاء إلى متابعة القراءة، مواليا تثقيف نفسه بنفسه، مستظهرا من الشعر اللاتيني أو الإغريقي ما يلذه، ويجعله على صلة دائمة بهاتين اللغتين اللتين تعلمهما في مدرسة البلدة.

هذه الروايات عن حياته قبل رحيله إلى لندن يحيط بها غموض غير أن واقعة من وقائع حياته خلال هذه الفترة تبدو لأعيننا حقيقة لا يعتريها الشك، وهي حادثة **زواجه المبكر** عام 1582، وهو في الثامنة عشرة عمره من ابنة أحد

المزارعين الأغنياء المقيمين على مقربة من البلدة، وهو زواج يثير التساؤل والدهشة، لأكثر من سبب! فقد كانت الفتاة (**آن هاثاواي**) قد أتمت عامها السادس والعشرين، فهي تكبر وليم شكسبير بثمانية أعوام، وقد وقع الزواج في ظروف غير ملائمة لأسرة شكسبير التي كانت تعاني من الضيق المادي ما جعلها تحرم الفتى الموهوب من متابعة دراسته النظامية، وتدفع به إلى الحياة العملية ليسهم إلى جانب أبيه في كسب لقمة عيش الأسرة وتأمين نفقات حياتها، وما انقضى على زواج الفتى خمسة أشهر حتى وضعت له الزوجة **أولى بناته (سوزانا)** في

السادس والعشرين من أيار عام 1583! وبعض الباحثين يصرحون بأن شكسبير وجد نفسه وهو في الثامنة عشرة متورطا في الزواج من آن هاثاواي بعد أن حملت منه سفاحا، وآخرون لا يرون في الأمر تورطا، ويقولون إن الزواج في انكلترة في القرن السادس عشر كان يتم على مرحلتين زواج قانوني وزواج شرعي، وقد تفصل الزواجين فترة طويلة، ولهذا فإن إنجاب (آن هاثاواي) مولودتها بعد خمسة أشهر من زواجها الشرعي المسجل ليس فيه مأخذ في عرف ذلك العصر.

وفي نهاية عامين من ذلك الزواج رزق وليم شكسبير من زوجته تلك **توأمين، ولدا وبنتا**، فأصبح وهو ما يزال في الحادية والعشرين رب أسرة تنمو وتزداد، ووجد وليم نفسه بحاجة إلى موالاة الكد والعمل المضني في ذلك الريف المعزول ليكسب رزق **تلك الأسرة التي أصبحت عبءا إضافيا على أبيه**، على الرغم من سوء أحواله المادية ونضوب موارد عيشه؛ إلا أن فرص العمل في ستراتفورد لم تكن كبيرة، فكان عليه أن يجرب حظه في أماكن أخرى، بالهجرة إليها والعمل فيها، لولا ارتباطه بزوجته وأولاده، وشعوره بمسؤليته نحو أسرته

التي يخشى أن يغامر باصطحابها معه للبحث عن لقمة العيش، في دروب وعرة من الكفاح والتشرد والارتزاق!

ولكن ظروفا صعبة أحاطت به يومذاك ودفعته إلى التعجيل في مغادرة بلدته الصغيرة..

2

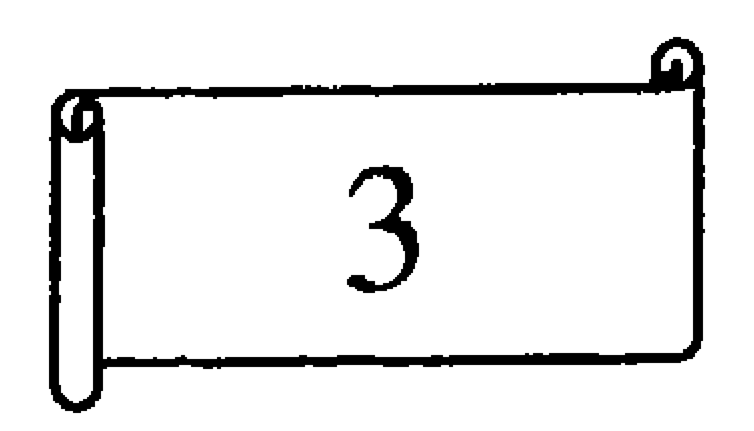
يزعم الرواة أن وليم شكسبير كان يومـــذاك يصاحب عددا من الرفـــاق الشـــبان المـــاجنين المستهترين، فسولت لهم أنفســـهم ذات يـــوم أن يتسللوا إلى حديقة أحد أثرياء المنطقـــة، الســـيد **توماس لوسي**، على مقربة مـــن ســـتراتفورد، ليسرقوا منها بعض غزلانه، فشعر بهم الحـــراس وأمسكوا ببعضهم، وكان وليم شكسبير في جملـــة من تم القبض عليهم، فوضع في محبس الاتـــهام حينا، وكانت هذه الحادثة ذات أثر كبـــير فـــي شاعرية الشاب الموهوب، إذ فجرت البـــاكورة

الأولى من شعره، **فأنشأ حكاية منظومة يـــهجو بها السيد لوسي**، انتقاما لما أصاب وليم ورفاقـه من فضيحة السرقة والسجن! وأثار هجاء الشـــاب ثائرة السيد لوسي وغضبه، وهـــو واحـــد مـــن أرباب النفوذ في تلك المنطقة، فشدد النكير علـــى الشاعر السارق، فلم يجد وليم شكسبير آنذاك بـدا من الفرار إلى لندن، للنجاة بنفسه!

ويزعم رواة آخرون أن شكســـبير غـــادر ستراتفورد يومذاك لعدة أسباب، أهمها إدراكه أن بلدته الصغيرة لا تتسع لآماله الكبيرة ومواهبـــه المتفتحة، وهو لو بقي فيها يكد ويعمـــل لكســـب لقمة عيشه وأسرته لقضى على مواهبـــه تلـــك قضاء مبرما، فكان لا بد له من النجاة بنفســـه،

ليشق الطريق إلى المستقبل الأفضل الذي يحلم به، فاتخذ قراره الحاسم بمغادرة ستراتفورد، وقد واتته الفرصة الملائمة عندما **وفدت فرقة ايرل ليستر المسرحية** على بلدته لتقديم بعض عروضها المسرحية فيها، فاتصل ببعض أفرادها، فدعوه إلى العمل معهم لما شاهدوا من موهبته وبراعته في الأداء التمثيلي، فاستجاب شكسبير لدعوتهم، وأقنع أسرته وأهله بالموافقة على **انضمام الشاب الممثل الهاوي إلى تلك الفرقة**، والعمل فيها، وهكذا وضع الشاب الموهوب أقدامه على بداية الطريق الموصلة إلى مجده الأدبي والمسرحي العظيم..

ولكن الدرب الوعر إلى المجد ما يزال طويلا أمام الشاب الشاعر الممثل، وعلينا أن نتابع خطا مسيرته وكفاحه، وهو يجهد في تذليل العقبات، ويحقق النجاح تلو النجاح، في صعوده العبقري الدائب نحو قمة مجده العظيم.



وهنا فترة أخـــرى تكتنفـــها ســـحابة مـــن الغموض في حيـــاة شكســـبير، منـــذ مغادرتـــه ستراتفورد عام 1585م إلى أن أصبح في لنــــدن علما بارزا من أعــــلام الأدب والمســـرح عـــام 1592م. سنوات ســـــبع، بيـــن عامـــه الحـــادي والعشرين وعامه الثامن والعشرين، شهدت فـــي البداية التحاقه بالفرقة التمثيلية، وتجواله معها في رحلاتها عبر **انكلترة وبعض البلاد الأوربية مثل هولاندة** وبلجيكة، قبل أن يستقر بها المقام فـــي لندن آخر المطاف!

بعض الروايات تصور لنا **شكسبير في بداية نزوحه إلى لندن، يعمل في حراسة الجياد** التي يعهد إليه بها أصحابها خلال حضورهم حفلات المسرح: يقول الدكتور جونسون ـ أحد مؤرخي حياة شكسبير الأولين: (كانت العربات قليلة في عصر اليزابيث، ولم يكن منها ما يستأجر، فكان أولئك الذين يشمخون بأنوفهم، أو تبلغ بهم رقة الجسد والكسل حدا يعجزون معه عن السير على أقدامهم، يمتطون ظهور الجياد إلى المكان البعيد، يقصدونه للعمل أو التنزه. ومن هؤلاء كثيرون كانوا يذهبون إلى مسرح التمثيل على جيادهم، فلما فر شكسبير إلى لندن،

فازعا من تهمة السرقة، كانت أولى وسائله في كسب عيشه أن **يقف عند باب المسرح ليمسك بجياد من لم يكن لهم خدم لذلك**، ليعدوا الجياد إلى سادتهم عند نهاية التمثيل، فتمكن شكسبير بعنايته وحسن استعداده أن يبرز في هذا العمل، وما هو إلا أن صار كل مترجل عن جواده يصيح: "وليم شكسبير!" حتى أوشك ألا يعهد بجواد إلى سواه ما دام حاضرا؛ وكأنما كان ذلك أول بارقة للحظ السعيد، فلما تكاثرت الجياد على شكسبير استأجر صبية يعاونونه، فإذا ما نادى صاحب الجواد: شكسبير! سارع الصبي من هؤلاء قائلا: "أنا معاونه يا مولاي!" وانتقل

شكسبير بعدئذ إلى مهنة أرفع شأنا، لكن ظل خدم الجياد يحتفظون بهذه الكنية "معاون شكسبير" ما بقي السادة يقصدون إلى المسرح بجيادهم!.

ولكن هذه الرواية عن الكفاح الشاق لشكسبير في هذه الفترة القاسية من حياته في لندن لم تسلم من النقد والتفنيد، وسواء صحت الرواية أو كذبت، **فقد تمكن الشاب المكافح من الانتقال إلى داخل المسرح** بعد حين: يعاون الملقن أولا، ثم يعاون الممثلين عند اقتراب دور كل واحد منهم، استعدادا لظهوره على المسرح، وأخيرا يشارك في تمثيل بعض الأدوار بديلا

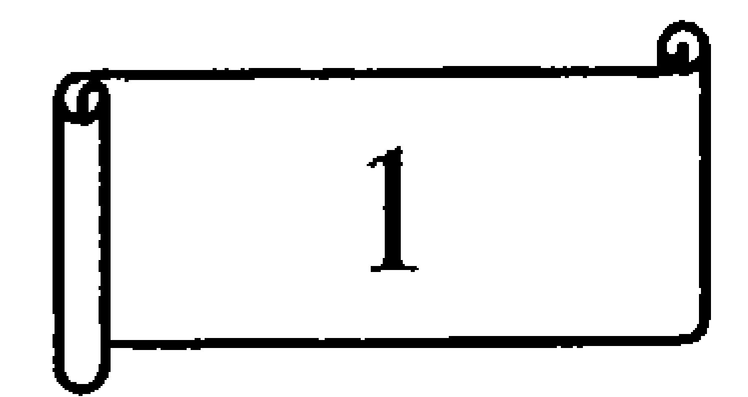
عن الممثلين الغائبين، ومن هنا تبرز موهبتـــــه، ويصعد درجات النجاح قفزا، ويعلو شأنه ممثــلا وكاتبا، **ويصبح علما من أعلام المســوح والأدب في عام 1592 وهو في عامه الثامن والعشرين،** ويشتد التنافس بينه وبين عدد من كبـــار كتـــاب المسرح والمؤلفين له، ويتمكن بقـــوة شــــاعريته ومواهبه الأصيلة من تحقيق السبق عليهم، وبينما كان بعضهم ينكر على الشاب العبقـــري قدرتـــه على صياغة الشعر الجيد يقدم شكســـــبير آيتـــه الشعرية الخـــــالدة، وهـــي **قصيدتـــه "فينـــوس وأدونيس"** في نيسان 1593 م ويهديها إلى أحـــــد النبلاء وهو "ايرل سوثمبتن" طمعا فــــي الفــوز

برعايته، ولم تكد القصيدة تنشر في الناس حتى أقبلوا على قراءتها متلهفين، وطبعت تسع مرات في أعوام قليلة، وكان نجاحها العظيم برهانا على عبقرية صاحبها ونبوغه، كما كانت ردا متحديا لجميع المنافسين، وفي العام التالي — 1594 م — أخرج شاعرنا العظيم درته الثانية، وهي **قصيدة** "**اغتصاب لوكريس**" وأهداها إلى حامية النبيل "ايرل سوثمبتن" فأغدق عليه العطاء، وبدأ شكسبير منذ ذلك الحين يعرف اليسر في حياته بعد طول الضيق والعسر، وبدأ يجني ثمار كفاحه الشاق الطويل، بعد سنوات من الحاجة والفقر، **واتسع الرزق بين يديه**، وتعددت

موارد كسبه: **من الكتابة والتأليف، ومن التمثيل المسرحي، ومن المشاركة في تأسيس بعض مسارح لندن وتمويله**، وفاض عليه المال، حتى تمكن من تجديد ثروة أسرته في ستراتفورد، وكانت صلاته ببلدته وأهله وأسرته هناك لا تنقطع أبدا، فهو يوالي زياراته للبلدة التي أصبحت تفخر بابنها البار، والأنباء التي تصل إليها عن أمجاده العظيمة في حقول الشعر والأدب والمسرح والتمثيل.

الباب الثالث

شكسبير في أوج مجده الأدبي والفني



1

يقسم الباحثون حياة شكسبير الفنية إلى **أربع مراحل متميزة**، يرصدون من خلالها تطور فنه المسرحي والعدد الكبير من الروايات التي ألفها للمسرح وخير لنا أن نسير نحن مع تلك المراحل لنشهد في كل واحدة منها أهم أعمال الشاعر العظيم وأهم الأحداث في حياته فيها.

فأما **المرحلة الأولى** فهي التي تنتهي بعام 1596 م وقد ختمت بفاجعة في حياة شكسبير

وهي موت ولده الذكر الوحيد (**هامنت**) الذي جاوز العاشرة من عمره بقليل وقد خلف موت ولده في قلبه جرحا لا يندمل! وهذه المرحلة تمثل كفاح الفنان العظيم لتثبيت أقدامه في فنه، وتحقيق آماله الكبيرة في الوصول إلى القمة التي يحلم بها، وقد شهدنا إخراجه لقصيدتيه (فينوس وأدونيس) و(اغتصاب لوكريس) في هذه المرحلة فدلل بهما على عبقريته الشعرية الخصبة، أما في تأليفه المسرحي لهذه المرحلة فالباحثون يقررون أن شكسبير لم يكد يصنع أكثر من تنقيح ما وصل إليه من إنتاج غيره، مستغلا قدرته الشعرية الفائقة على التعبير،

وتمكنه من صياغة الفكرة الواحدة في عبارات كثيرة مختلفة مستخدما ألوان الصور البيانية والبديعية لتجميل العبارة وإحكام بنائها، **فمن روايات هذه المرحلة:**

"تيتس أندرونيكس"!

و"هنري السادس" (بأجزائها الثلاثة)

و"ملهاة الأخطاء" (أو كوميديا الأخطاء)

و"جهد الحب الضائع"

و"حلم ليلة في منتصف الصيف"

و"ريتشارد الثالث"

و"سيدان من فيرونا"

و"روميو و جولييت"

و"ريتشارد الثاني"

و"الملك جون"

ولما كان إنتاج هذه المرحلة من المسرحيات متأثرا بحماسة الشباب وتدفقه العاطفي فقد جاءت الروايات **فياضة بالعاطفة، والعبارات الرنانة،** وفيها الدليل على تمكن شكسبير في مستهل حياته الأدبية من إحكام الصياغة وقوة التعبير، وفيها الدليل أيضا على ميل الشاعر العظيم إلى استعادة موضوع مسرحياته من التاريخ، وتاريخ بلاده ــ إنكلترة ــ بصورة خاصة، وسيكثر شكسبير من إنتاج المسرحيات التاريخية في المراحل القادمة.

وأما **المرحلة الثانية** فهي التي تمتد من عام 1596 م إلى عام 1602 م وقد ختمت بوفاة والد الشاعر، جون شكسبير، وكان وليم شديد البر بأبيه، وفي مطلع هذه المرحلة أراد الشاعر أن يرفع من شأن أبيه في ستراتفورد فابتاع له **شارة الشرف**، وكانت الدولة لا تبيع تلك الشارات إلا لسراة القوم وأعيانهم، وكان المال قد فاض في يدي الشاعر من مدخوله الكبير، من التأليف والتمثيل وتوظيف ما تجمع منه في الأعمال الأخرى، فاشترى شكسبير بعض الدور الفاخرة في بلدته، وحرص على أن يجعل أباه في زمرة السادة من ذوي الثراء، وكان ذلك كله

من أحلام صباه: أن يرد لأبيه مكانتــه وثروتــه بعد أن توالت على أسرته المحن ووقعت فريســة الضيق المادي والحرمان، بعد أن كــانت مــن ملاك الأرض وأعيان تلك المنطقة الموســرين؛ وقد اشترى شكسبير في ســتراتفورد ــ حيــث زوجه وابنتاه سوزانا وجوديث ــ **أفخم دار فــي البلدة**، وقد بقيت هذه الدار إلى اليوم قائمة، يحج إليها الزائرون من أصقاع الدنيا، وفي مســتهل هذه المرحلة الثانية من حياة وليم شكسبير الفنيــة أخرج "**تاجر البندقية**" وهي أكــبر دليــل علــى بلوغه أوج فنه المسرحي، ففيها براعة العبقــري المبرز الموهوب، وبعد إخراج هذه المســرحية

عام 1596م قدرت الدولة موهبته وأنعمت عليـــه بلقب (جنتلمان) تقديرا لفنــه وإكبــارا لجــهوده وتشريفا له.

من روايات هذه المرحلة:

"هنري الرابع" بجزأيها

و"زوجات وندسور المرحات"

و"هنري الخامس"

و"جعجعة ولا طحن!"

و"الليلة الثانية عشرة"

و"كما تريدها"

و"ترويض النمرة"

و"خير كل ما ينتهي بخير"

والمسرحيات الخمس الأخيرة كلها ملاه من الطراز الأول، والمسرحيات الثلاث الأولى يعدها النقاد من التمثيليات التي تجمع بين المأساة والملهاة، أو هي من المآسي المضحكة، وقد عمد شكسبير إلى ذلك ليخفف من حدة مآسيه بمشهد هزلي يكسر به حدة التوتر، وعنصر الملهاة في هذه المسرحيات الثلاث يقوم على شخصية كوميدية **هي شخصية (فولستاف) وهي أبرز شخصية كوميدية خلقتها عبقرية شكسبير**، وهي نموذج لما يسميه النقاد اليوم "كوميديا الطبائع" وهي ضرب من الكوميديا يقوم على السخرية من الشخصية الإنسانية المشوهة من

الداخل؛ بحكم تكوينها الخاطئ نفسيا وعقليا؛ وعندما شاهدت الملكة اليزابيت مسرحية "زوجات وندسور المرحات" أعجبت كل الإعجاب بشخصية "السير جون فولستاف" فيها، وتصرفاته الأنانية المنافية لكل أخلاق! وطلبت الملكة من شكسبير أن يصور لها هذه الشخصية التي طغت عليها الأنانية طغيانا جارفا من جديد وقد وقع فولستاف في شباك الحب، ليرى الناس كيف يصنع العاشق الأناني، والعشق يتطلب التضحية والإيثار ونكران الذات، والعطاء دون مقابل في سبيل نيل رضى الحبيبة!

وهكذا ظفر شكسبير بإعجاب ملكة البلاد وتقديرها، وصادقه شيوخ الأدب وأعلامه في عصره، وفاض كسبه وعظمت ثروته، وأصبحت مسرحياته تمثل صورة للازدهار المسرحي العظيم في عصره.

2

والمرحلة الثالثة تقع بين عامي 1602 و1608 م وقد فجعت بوفاة أم الشاعر كما ابتدأت بوفاة أبيه، وإنتاج هذه المرحلة يمثل اضطرام نفس الشاعر باللوعة والحزن، وقد تمكن شكسبير من تقديم عدد من المآسي العظيمة في هذه المرحلة، بلغ فيها أوج سموه الفني، **ومن أبرزها:**

"هاملت"

و"يوليوس قيصر"

و"كيل بكيل"

و"أنطونيو و كاليوباترة"

و"كوريولانس"

و"ترويلس و كرسدا"

و"تيمون الأثيني"

و"عطيل"

و"ماكبث"

و"الملك لير"

والمآسي الثلاث الأخيرة في حكم النقاد هي أعظم مآسي شكسبير كلها، وقد أراد أن يصور فيها ما تخلفه الخطايا والجرائم في نفوس مرتكبيها من عذاب أليم وشقاء مقيم، كما أراد أن يبين في جلاء روح الانتقام التي يحملها كل

إنسان بين جوانحه، وقد تمكن شكسبير من تصوير أعماق النفس الإنسانية تصويرا بلغ فيه القمة، وبذلك خلق للناس تلك المآسي الرائعة التي يتكفل سموها الفني بخلودها على الدهر.

وكثير من النقاد يعدون مأساة (عطيل) أعظم ما بلغه فن شكسبير المسرحي رفعة وقوة، وهي مأساة كاملة، مثلت أول مرة عام 1604 على مسرح القصر الملكي، وموضوعها الغيرة العمياء وتدميرها للحياة الزوجية، **وخلاصتها** بإيجاز أن "**عطيل**" جندي شجاع، بسيط الخلق ساذج النفس، صريح نبيل، وقد أحب "**ديدمونة**" الفاتنة الجميلة، ابنة شيخ البندقية

وأحبته، وتزوج منها على كره من أبيها لهذا الزواج، وكان حبهما ساميا ونقيا، فلم تشبه شائبة، وخلت حياتهما الزوجية من المنغصات، **حتى تمكن الواشي (ياجو) من إفساد ما بين الزوجين**، فدس في عقل عطيل الساذج الارتياب في زوجته الطاهرة، وآثار الشكوك عليها في نفس الزوج الغيور، وانتهى الأمر بوقوع الكارثة، **فقتل عطيل زوجته التي يحبها**، وبعد أن أزهق روحها تبين له وجه الحق، ولم يجد وسيلة للتكفير عن خطئه إلا بأن يقتل نفسه! تلك هي القصة موجزة، وقد استعارها شكسبير من كتاب **(هيكاتوميني)** للكاتب الإيطالي جيرالدي

سنثيو، الذي نشر وترجم إلى عدد مـــن اللغـــات الأوربية ومنها الانكيزية، في أواخـــــر القـــرن السادس عشر، فكانت القصة فـــي متنـــاول يـــد شكسبير يومذاك، وقد حافظ على هيكلها العـــام، وأضاف إليها بعض التعديلات، وبنى شـــــخصية الزوج الغيور فيها بناء دراميا أصبحت شخصية عطيل فيه بطلا تراجيديا يحزن المشاهد لمأسـاته ويتخذ منها موطنا للعبرة والـــدرس إذ اســـتطاع شكسبير أن يسمو في مســـرحيته ويجعـــل مـــن **موضوعها دراسة عميقة في الغيرة الزوجيـــــة وأثرها المدمر**؛ وشـــــعر شكســـبير فـــي هـــذه المسرحية يبلغ القمة فـــي التصويـــر والعاطفـــة

وتقلبات النفس الإنسانية في حالتي الرضى والغضب، والسكون والهياج، والهدوء والثورة.

وفي أواخر هذه المرحلة من حياة شكسبير تزوجت كبرى بنتيه (سوزانا) من طبيب مشهور في ستراتفورد، وستكون ابنتها (اليزابيت) من هذا الزوج الحفيدة الوحيدة لوليم شكسبير، والتي سيؤول إليها إرثه الكبير وأملاكه، كما سنرى فيما بعد.

ثم تجيء **المرحلة الرابعة والأخيرة** من حياة شكسبير الفنية وتمتد من عام 1608 إلى عام 1613 م قبل أن يغادر لندن عائدا إلى بلدته ستراتفورد ليقضي سنواته الأخيرة فيها.

ومسرحيات هذه المرحلة هي:

"بركليس" و"سمبلين"

و"العاصفة" و"قصة الشتاء"

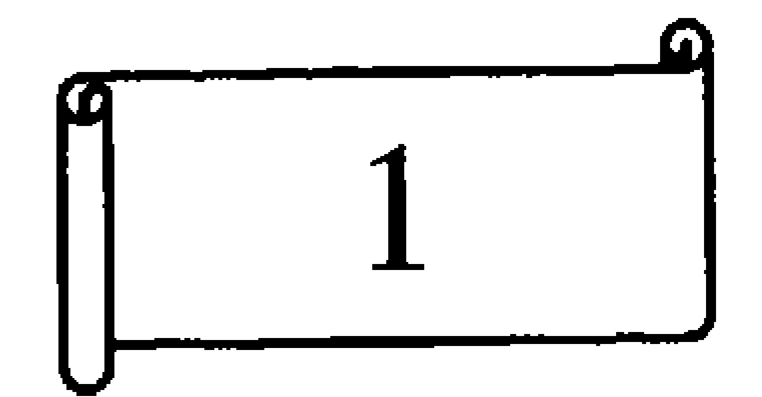
و"هنري الثامن"

وكان الشاعر العظيم خلال هذه السنوات الخمس الأخيرة من حياته في لندن قد انزاح عن صدره ما كان يجثم عليه من هموم، فراح يعقد صلات الود والمحبة مع الناس، ويحاول أن يستعيد ما كان له في صباه من مرح، ويجعل شخصيات ملاهيه الأخيرة تضحك من أعماق القلب، ولكنه لم يستطع ذلك، واقتصرت الضحكات على ابتسامات شاحبة تخفي وراءها قلبا أترعته الحادثات وعصرته الأشجان.

وفي عام 1613 كان الشاعر الأعظم قد أتم **ستا وثلاثين مسرحية**، وهو لم يتم السابعة والأربعين من حياته الخصيبة، فكان **يؤلف مسرحيتين تقريبا في كل عام من أعوام حياته في لندن**، وقد بذل في التأليف والتمثيل والإشراف على إخراج مسرحياته جهودا مضنية، فأحس العبقري بعد ذلك بحاجته إلى الراحة، **فآثر أن يعود إلى بلدته الصغيرة**، ليعيش فيها مع زوجته وابنتيه ويخلد إلى نفسه، مكتفيا بما حقق من نجاح مادي وأدبي عظيم، فلنعد مع الشاعر العبقري إلى ستراتفورد لنشهد سنوات حياته الأخيرة في نهاية مطافه الطويل.

الباب الرابع

شكسبير في نهاية المطاف



عاد شكسبير إلى ستراتفورد بعد أن أصاب من النجاح والمجد والثروة ما يكفيه، وآن له أن يستريح بعد طول كد وسعي، فأقام في بيته الذي اشتراه ومعه زوجته (آن) وابنته الصغرى (جوديث) ولكن هذه تزوجت بعد حين من رجوع أبيها، من السيد (توماس كويني) وهو ابن رجل من تجار ستراتفورد، يتجر بالخمور، وأصبح شكسبير يقضي أيامه مع زوجته متفرغا

للإشراف على أملاكه وزيارة أهله وجيرانـــــه.. **وقد انقطع العبقري عن الكتابة نهائيا**، وقد كفـاه ما أعطى من نتاج خصب يكفل لصاحبه المجــد والخلود.

ولعل أكبر ما كان يشغل بال شكسبير خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حياته، **مسألة إرثه**، فهو بعد زواج ابنته الثانية كتب وصيـــــة تـــرك بموجبها معظم أملاكه إلى ابنته الكبرى سـوزانا، ثم تكون لابنها إن أنجبت ولدا ذكــــرا، أو لابـــن أختها جوديث إن كان لها ابن فإن لم يكـــن فـــي حفدته جميعا أحد من الذكــــور آل الإرث إلـــى اليزابيت ابنة سوزانا، وهذا ما حدث فقد انتـــهت

ثروة الشاعر العبقري إلى حفيدته تلك، وبموتها انتهت أسرة شكسبير، وتبعثرت أملاكه! أما الزوجة (آن) فليس لها في وصيته غير سرير من أسرة الدار، ولم يكن أفضلها، أوصى به الزوج لها، ويرى الباحثون ذلك دليلا على أن العلاقة بين الزوجين لم تكن حسنة في المرحلة الأخيرة من حياتهما الزوجية.

كان شكسبير في ستراتفورد يقضي **شيخوخة هادئة هانئة**، وكان إشرافه على أملاكه وإدارة المزرعة التي اشتراها قبل عقد من السنين، ومساحتها 127 فدانا، لا يشغل وقته كله، وكان يطيب له أن **يتلقى زيارات من بعض**

أصدقائه من الأدباء والأعلام، ويروي الرواة أن اثنين من أعلـــم أدبـــاء عصـــره وهمـــا "بـــن جونسون" و"ميخــــائيل درايتـــون" قدمـــا إلـــى ستراتفورد لزيارته ذات يوم، فاحتفل بزيارتـهما، وقضى الثلاثة ليلتهم إلى الصباح فـــي شـــراب متصل، فسقط الشاعر محموما، من الإفراط فـــي السكر، وقضى أياما تحت وطأة الحمى، إلـــى أن أسلم الروح إلى بارئها في الثالث والعشرين مـــن نيسان عام 1616، في نفس اليـــوم الـــذي شـــهد مولده، وقد أتم عامه الثاني والخمسين، فدفن فـــي كنيسة ستراتفورد، ونقشت على قبره مقطوعـــة شعرية كان قد أعدها بنفسه لذلك، وقد جاء فيها:

"أيها الصديق الكريم، ناشدتك الله ألا تزيح عني التراب! بارك الله من يصون هذه الأحجار واللعنة على من يزحزح رفاتي!"

وهذه اللعنة التي تهدد كل من يحرك رفات العبقري هي التي حفظت رميمه في قبره، وحالت دون نقل رفاته إلى مقبرة العظماء.

2

وعندما عمدت إنكلترة إلى **الاحتفال بمـرور أربعمائة عام على ميـلاد شـاعرها الأعظـم شكسبير** أقامت مهرجانا عظيما خـلال شـهر نيسان 1964 حضره مندوبون يمثلون أكـثر دول العالم، وفي صباح الثالث والعشرين مـن هـذا الشهر، وهو يوم الذكرى، تجمع **شعراء أكثر من مائة دولة** مع عدد كبير من رجـالات إنكلـترة وغيرها عنـد مسـرح شكسـبير فـي مدينـة ستراتفورد، وحملوا أكاليل الزهور في موكـب مهيب حاشد، مشيا على الأقدام، حتـى وصلـوا **إلى البيت الذي ولد فيه الشاعر العبقـري فـي**

شارع **(هنلي)** ثم اتجهوا إلــى كنيســة (هولــى ترينيتي) ليقفوا خاشعين أمام ضريحه، ووضعوا الأكاليل على قبره، ونــثروا فوقــه الأزهــار، وأقيمت مأدبة كبرى للضيوف الوافدين، تليــت خلالها رسالة **الملكة اليزابيت الثانية في الثنــاء على الشاعر العبقري** وتمجيده، وبعــد الغـداء افتتح زوج الملكة **متحف شكسبير** الذي أســس لهذه المناسبة، بجوار البيت الذي ولد فيه الشاعر الأعظم، وبلغت تكاليف المتحف ربــع مليــون جنيه، وظلت الجماهير طوال ذلك اليوم محتشـدة على جوانب الطرقات، لتحيــة الموكــب عنـد مروره فيها، وعند المســاء حضــر الضيــوف

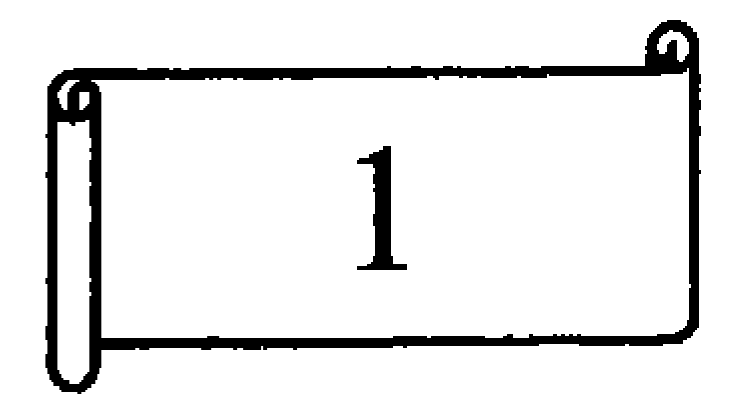
الوافدون إلى مسرح شكسبير التذكاري، ليشهدوا تمثيل إحدى روائعه المسرحية، وأصدرت الدولة طابعا تذكاريا تخليدا لهذه المناسبة، يحمل صورة شكسبير مع ملكة إنجلترة.

والحق أن الإنكليز منذ مائة عام دائبون على الاحتفال بشاعرهم الخالد، ففي الثالث والعشرين من شهر نيسان في كل عام، يقومون بموكب كبير، يسير فيه سفراء الدول من مسرح شكسبير في ستراتفورد إلى بيته، وقد أصبح هذا الموكب مسيرة تقليدية سنوية، تخليدا لعبقرية شكسبير، وتكريما لذكراه الحية في نفوس قراء أدبه الخالد.

إن مكانة شكسبير عند الإنكليز لا تعدلـــــها مكانـة، ويقول كارليل: "ترى لو سئل الإنكلـــيز: أي الأمريـــن تفضلـــون: أتتخلـــــون عـــن إمبراطوريتكم فــــي الـــهند، أم عـــن شـــاعركم شكسبير؟" ويجيب كارليل: "سواء لدينا أكانت لنا إمبراطورية هندية أم لم تكن" **فلن يغنينا شـــي ء عن شكسبير!**

الباب الخامس

صفحات من روائع شكسبير الخالدة



نقدم في هذا الباب صورتين موجزتين لمسرحيتين من روائع شكسبير الخالدة، وهما **(تاجر البندقية)** و **(الملك لير)** وكل أملنا أن يجد فيهما القارئ العزيز ما يغريه بمتابعة قراءة مسرحيات شكسبير الكثيرة الأخرى، لأن في مؤلفات هذا الشاعر العبقري العظيم دنيا حافلة بالإفادة والإمتاع، إذ كان شكسبير رجلا فذا يمثل بمواهبه النادرة عالما بأسره، وأدبه الخصيب

مرآة للطبيعة والناس في عصره، وكانت الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ــ لحسن حظ القارئ العربي ــ قد عمدت إلى **ترجمة أعمال شكسبير الكاملة**، وتولى الترجمة عدد من خيرة الأكفاء من المترجمين، وبذلك أصبحت مسرحيات شكسبير في متناول يد القارئ العربي، في لغة سليمة وإخراج أنيق.

ومسرحية (**تاجر البندقية**) من أشهر مسرحيات شكسبير، وكنا قدمنا أنه أخرجها حوالي عام 1596م فلقيت إقبالا عظيما، وعدها النقاد دليلا على بلوغ الشاعر الكبير أوج فنه المسرحي فيها، ولقي شكسبير بعد إخراجها من

الدولة تشريفا وتكريما واعترافا بموهبتـــه ودوره في ازدهار الفن المسرحي في عصره.

ومسرحية (تاجر البندقية) تمثل **جشع أحــد المرابين اليهود في مدينة البندقية بإيطالية**، كما تصور حقد هذا المرابي اليهودي على التجـــار الشرفاء الذين كانوا يمدون يد العون إلى كل مـن تدفعه الحاجة إلى الاقتراض من اليهودي بالربـــا الفاحش، ومن هـــؤلاء التجـــار الشـــرفاء كـــان أنطونيو التاجر البندقي الواسع الثراء، والطيـــب القلب، والذي كان يحول دون أطماع المرابـــي اليهودي (**شايلوك**) بإنقـــاذ كـــل فريســـة مـــن المحتاجين، بتقديم القروض دون ربا إليها، ممـــا

يزيد في سخط **(شايلوك)** وحقده على أنطونيو، ويجعله يتربص به الفرص لينتقم منه.

وأخيرا جاءت الفرصة المناسبة للانتقام، فكشف المرابي اليهودي الحاقد عن كل ما في نفسه من ضغائن على أنطونيو، والقصة هنا بحاجة إلى مزيد من الشرح والتفصيل: فقد كان لأنطونيو في البندقية صديق يحبه ويؤثره، هو (باسانيو)، وكان كل من الصديقين يخلص للآخر إخلاصا لا حد له، حتى ضرب المثل بما بينهما من إخاء ووفاء، وقد كان (باسانيو) شابا نبيلا نشأ في أسرة غنية مجيدة، ولكنه أنفق كل ثروته في مساعدة المحتاجين والبائسين، وعندما أحب

(بورشيا) الوارثة المثرية المقيمة في (بلمونــــت) وفاز بخطبتها ورضاها وحبها، لم يجد في يـــده من المال ما يعينه على الإنفـــاق، فالتجـــأ إلـــى صديقه (أنطونيو) التاجر الموسر، الذي كـــــانت سفن تجارته تذرع البحار وتحمل إليه الأربــــاح من موانئ العالم، ولم يكن أنطونيو ليبخل علـــى صديقه (باسانيو) بما يطلب، ولكن ثروته كلـــها كانت يومذاك في مراكبه التجارية التي ينتظـــر عودتها إلى البندقية، غير أن حاجة (باسانيو) لـم تكن لتحتمل التريث والتأجيل، فعمد أنطونيو إلى الاستدانة ليحصل على ما يريد صديقه من مــال، **ولم يكن أمام الصديقين بد مـــن اللجــوء إلـــى**

الشيخ اليهودي المرابي (شايلوك) للاقـــــتراض منه، وهما اللذان كانا يكرهــــان هــذا الرجــل الشرير البخيل ويمقتانه، ولا يذكران اســـمه إلا باللعنة والاحتقار!

ولكن حاجة (باسانيو) إلـــى المـــال الآن قاهرة، والأبواب مسدودة في وجهه، وقد تلقـــى الشيخ المرابي طلب (باسانيو) باقتراض ثلاثـــة آلاف دوقية (عملـــة دوق البندقيـــة) بابتســامة ماكرة، وسأله كيف يقدر علـــى ســداد هـــذا القرض، فأجابه:

إن صديقي أنطونيو يكفل القـــرض، وهـــو يتعهد لك برده قبل أن تنقضي أشهر ثلاثة!

وعندما حضر أنطونيو إلى بيت (شايلوك) قال له الشيخ اليهودي الماكر:

ـ إني مستعد لتسليفك المال بلا ربح ولكني أحب أن أشترط شرطا، من قبيل المداعبة والمزاح، ولن ترفضه ما دمت موقنا بقدرتك على الوفاء بالدين في الموعد المحدد!

وأجاب أنطونيو دون تردد:

ـ اشترط ما تريد، فأنا واثق كل الثقة من قدرتي على الوفاء بالدين قبل انقضاء ثلاثة أشهر! وقال (شايلوك) عند ذاك:

ـ إني **أشترط أن تعطيني رطلا من لحمك،** إذا تأخرت عن سد الدين في الوقت المحدد!

ودهش الصديقان لهذا الشرط العجيب، وعجبا من رغبة الشيخ اليهودي في مثل هذا المزاح، وأعلن (باسانيو) رفضه ولكن (أنطونيو) حسم الأمر بتوقيع الصك، وأعلن لصديقه أن سفنه ستعود إلى البندقية قبل أن ينقضي شهران، وابتهج (شايلوك) معلنا أنه لم يقصد إلا الدعابة البريئة والتسلية الخالصة، وأنه عمد إلى تقديم القرض إلى الصديقين بلا ربا، ليفوز بحبهما ويستميل قلبيهما إليه!!

وهكذا وقع (أنطونيو) عقد الدين، ولم يقدر عواقب موافقته تقديرا صحيحا! وحمل (باسانيو) المال ليسافر إلى (بلمونت) وخطيبته الحسناء

(بورشيا) وكانت فتاة ثرية نبيلة يتهافت الخطـلب على طلب يدها، ولكنهم لم يفوزوا بـــها، وفـــاز (باسانيو) إذ ساعده الحظ بذلك، ولا حاجة إلــــى تفصيل كيف تم له ذلك، في هذا الموجز السريع.

ومرت أشهر ثلاثة عندما قدم مـــن البندقيــة على (باسانيو) صديق يحمل أنباء مزعجة، فقـــد **غرقت جميع السفن والمراكب التي تحمل تجــارة أنطونيو**، وأصبح التاجر البندقي الواسع الـــثراء لا يملك شيئا، واستحال عليه أن يفي بما عليه من دين لليهودي المرابي (شايلوك)، وأصر الشـــيخ الماكر على الانتقام من عدوه اللـــدود، بمطالبتـــه برطل من لحمه! وعندما سمع (باســـانيو) هـــذه

الأخبار أصابه الهلع، وهده الألم، وعلمت بورشيا بالأمر، فأبدت استعدادها لدفع أضعاف المبلغ إلى اليهودي الحاقد، وأرسلت باسانيو دون تريث ليعمل على إنقاذ صديقه الوفي الصدوق.

وفي قاعة المحكمة لم تجد جميع الوسائل لاستعطاف الشيخ اليهودي، وقد أصر على تنفيذ ما اشترط، انتقاما من التاجر المنكوب بثروته، وإرضاء لحقده الأسود عليه.

ونقدم هنا إلى القارئ العزيز **مشهدا من قاعة المحكمة**، كما يقدمه شكسبير، وشخصيات المشهد: الدوق حاكم البندقية، وأنطونيو، وشايلوك، وباسانيو مع غيرهم من الأعيان الذين حضروا المحاكمة.

2

المشهد: البندقية: قاعة المحكمة

الدوق: أنطونيو هنا؟

أنطونيو: إني رهن إشارة سموكم.

الدوق: إني لما آسف أصابك، وإنك لتواجه خصما قد قلبه من الصخر، مجردا من الإنسانية، فاقد الإحساس بالشفقة، ليست لديه ذرة من العطف والرحمة!

أنطونيو: لقد سمعت أن سموكم قد بذلتم جهدا عظيما لتخففوا من شدة مطالبه، ولكنه اتخذ موقف العناد، ولما كانت مواد

القانون لا تنجيني من براثن حقده، فإني أواجه حدة غضبه صابرا هادئا لتحمل قسوة حقده وضغينته.

الدوق: ليتوجه من يدعو اليهودي للمثول أمام المحكمة [يدخل شايلوك].

الدوق: أفسحوا له الطريق، ودعوه يقف في مواجهتنا، إن الناس كلهم يظنون يا شايلوك، وأنا معهم في ذلك، أن كل ما تريده هو أن تمضي في هذا الضرب من الحقد البغيض حتى آخر الشوط، وهم يظنون أنك حينذاك ستظهر شفقتك ورحمتك على نحو أعجب مما تتظاهر به

من القسوة العجيبة ويقولون إنك لن تتنزل فقط عن الجزاء الذي تود توقيعه باقتطاع رطل من لحم هذا التاجر البائس، بل إنك ستأخذك الرحمة الإنسانية والعطف وتلقي عليه نظرة لما أصابه من الخسائر الأخيرة الفادحة التي أثقلت كاهله، فتعفيه من بعض المال، وهو دين لو أصيب به أعظم التجار لأفلس واستدر العطف من كل القلوب، وإن قدت من النحاس أو الصخر الأصم! إنه لخطب يؤثر في أقسى النفوس ولو لم تكن تألف الرقة في المعاملة، وإنا جميعا لنرقب جوابا رقيقا منك أيها اليهودي!

شايلوك: لقد صارحت سموكم بما أهدف إليـــه،
ولقد أقسمت بسبتنا المقدس أن آخذ مـــالي
من حق لمضي الوفاء كمـــا جــاء فـــي
الصك، فإذا أنكرتم هذا فلتقـــع مخـــالفتكم
أنظمة مدينتكم وحرياتها على كواهلكـــم،
ولسوف تسألني لم أفضل الظفر بقطعـــة
من اللحم الفاسد على ثلاثة آلاف دوقيـــة،
ولكني لن أجيبك عن هذا السؤال، ولكـن،
لنقل إن هذا هو مزاجي الخـــاص: فـــهل
استطعت أن أجيبك؟
وماذا في الأمر إذا كان هناك فأر يعيـــث
في بيتي فسادا ويضايقني، وكان يســـرني

أن أؤدي عشرة آلاف دوقية لاصطيـــاده؟
أترضون هذا جوابا؟ إن من الناس مـــن
يمقتون رؤية خنزير مشوي فاغر فــــاه،
وآخرين يجنون جنونا إذا شـــاهدوا قطــا
ومنهم من لا يستطيع منع نفسه من التبول
إذا أصغى لنغمة مزمار، ذلك أن عواطفنا
تسيطر سيطرة كاملة على ما نحب ومـــا
نكره والآن لأجب عن سؤالك: كما أنه لا
يوجد سبب قوي يوضح السر في كراهيـة
هذا الشخص لخنزير فاغر فــــاه، أو ذاك
للقط العديم الأذى الذي لا بد من وجـــوده
في المنزل، ولا يطيق ثالث هذا المزمار،

فكذلك لا أستطيع أن أدلي بسبب ولن أدلي بسبب أكثر من أنني أضمر البعض لأنطونيو وأحقد عليه أشد الحقد، ولهذا أمضي في قضية خاسرة ضده، أفيقنعكم هذا الجواب؟

باسانيو: ليس هذا جوابا أيها الرجل العديم المشاعر يسوغ قسوتك التي نراها!

شايلوك: لست ملزما بأن تعجبك إجاباتي!

باسانيو: أفيقتل الناس كل ما يكرهون؟

شايلوك: أيكره الإنسان ما لا يرغب في قتله؟

باسانيو: ليس ضروريا أن تؤدي كل إساءة إلى الكراهية.

شايلوك: ماذا تقول؟ أفتسمح لثعبان بأن يلدغـــك مرتين؟

أنطونيو: أرجوك أن تتذكر أنك تناقش اليـهودي:
إنه لأسهل عليك أن تسأل الذئب لم أبكـــى
النعجة بافتراس صغيرها من أن يكـــون
في وسعك أن تلين قلب اليهودي الــذي لا
نظير له في قسوته، ومن ثم فرجائي إليك
ألا تعرض عليه شيئا بعد، وكفاك جـــهدا
في هذا السبيل، ولكن عجلـــوا بـــإعلان
القانون كما يتراءى لكم، واحكمـــوا فـــي
قضيتي، وليظفر اليهودي بمرامه.

باسانيو: هذه ستة آلاف دوقية خذها مقابل الآلافـك الثلاثة!

شايلوك: لو أن كل دوقية من هذه الآلاف الستة
قسمت ستة أقسام، وصار كل قسم منها
دوقية لما رضيت بذلك مغنما: لست أبغي
غير تنفيذ شرط الوثيقة!

الدوق: كيف ترجو مرحمة وأنت لا تظهر شيئا
منها؟

شايلوك: وأي حكم أخشاه ما دمت لا أظلم أحدا؟
إن رطل اللحم الذي أطالب به قد اشتريته
بثمن غال! إنه حقي وسأناله، فإذا أبيتم
علي ذلك فسيلحق العار بقضائكم، ولن
يصبح لقوانين البندقية أي أثر فعال! أقف
مطالبا بحكمكم، فأجيبوني، هل أظفر به؟

الدوق: إن من حقي أن أقف هذه المحكمة بمـــللي

من سلطان، ما لم يفـــد العـــالم الضليـــع

(بيلاريو) الذي أرسلت في طلبـــه اليـــوم

للوقوف على رأيه في حسم هذه القضية!

وعند ذاك يصل إلى قاعة المحكمة رســـول

من مدينة (بادوفا) من عند العلامـــة (بيلاريـــو)

يوصي أن تأخذ المحكمة برأي عالم شاب، يدخل

إلى القاعة وهو في الحقيقة (بورشـــيا) خطيبـــة

(باسانيو) متنكرة، ويأخذ الشاب القادم أول الأمر

جانب شايلوك وحقه في طلبه، فيرتـــاح الشـــيخ

اليهودي إليه، ويعلن إصراره على اقتطاع رطل

اللحم ولو عرضت عليه البندقية كلها مقابل ذلـــك

لما رضي، ويستسلم أنطونيو ويتوسل إلى المحكمة أن تصدر حكمها عليه، ويكشف عن صدره، ويسأل العالم الشاب شايلوك:

ـ من حقك الحصول على رطل من لحم هذا التاجر وإن المحكمة لتحكم لك بذلك، والقانون يؤيدك! **ولكن الصك لا يبيح لك الحق في قطرة واحدة من الدماء!** خذ نصيبك من اللحم، ولكنك إذا أرقت وأنت تقطعه قطرة واحدة من دم مسيحي، صودر عقارك وبضائعك لدولة البندقية تطبيقا لقوانينها!

وهنا يتراجع شايلوك عن طلبه، ويرضى بأن يتقاضى ثلاثة أمثال المبلغ، كما عرض

باسانيو من قبل عليه، ولكن العالم الشاب يتدخل، ويرفض أن ترضى المحكمـــة بذلــك، ويدعــو شايلوك إلى **اقتطاع رطل لا يزيد في الوزن حبة عن الرطل**، من لحم أنطونيـــو، دون أن يريــق قطرة من دمه، وإلا كان مصير شايلوك المـوت، وصودرت جميع ممتلكاته!

وهكذا **يتنازل الشيخ اليهودي عن كل شيء لينجو بنفسه**، وتنتهي المسرحية بإنقاذ أنطونيــو من ورطته واكتشاف باسانيو شـــخصية العـــالم الشاب الذكي الذي أنقذ حياة أنطونيـــو، دون أن يخالف قوانين البندقية، وألحق الهزيمة والجــزاء بالشيخ اليهودي المرابي، الذي خرج من قاعـــة المحكمة، وهو يجر أذيال الخيبة والندامة.

وتنتهي المسرحية بمفاجأة سارة أخرى، فقد تمكنت ثلاث سفن من مراكب أنطونيو التجارية من النجاة من الغرق ووصلت سالمة بما تحمل إلى ميناء البندقية.

3

تعد مسرحية (الملك لير) من أشهر مآسي شكسبير، وهي من نتاج المرحلة الثالثة من حياته الفنية، أخرجها حوالي 1605 ــ 1606م، وأكثر مسرحيات هذه المرحلة من المآسي التي صور فيها الشاعر ما تخلفه الجرائم والخطايا في نفوس مرتكبيها من عذاب أليم وشقاء مقيم، **كما صور فيها روح الانتقام التي يحملها كل إنسان في جوانحه.**

وترجع بنا مأساة الملك لير إلى الماضي البعيد منذ ألفي عام، ففي شمال بلاد الإنكليز كان

يومذاك ملك طيب القلب، أحبه شعبه لأنه كـــان حاكما عادلا، وقد شاخ هذا الملك دون أن يرزق ولدا يخلفه على عرشه، **فعزم علـــى أن يقســم ملكه بين بناته الثلاث**، ليزيح عن كاهله أعبـــاء الحكم، ويترك لبناته وأزواجهن مسؤولية الحفـاظ على أرض مملكته وشعبه، ويرتاح في شيخوخته ويقضي أيامه الأخيرة في دعة وأمـــن وســـلام، مستريح القلب ناعم البال، بعد أن بلغ الثمـــانين، وجلل الشيب رأسه.

وأقام الملك لير احتفالا عظيما في قصـــــره الكبير لكي يعلن تقسيم مملكته بين بناته، ويحـــدد حصة كل واحدة منهن وكانت بنتاه الكبريان قـــد

زوجتا من أميرين، أمـــا البنــت الصغــرى _ واسمها كردليا _ فقد جاء ملك فرنسة وواحد من أمراء انكلترة، ونزلا ضيفين على الملــك لــير، وكان كل منهما راغبا في الزواج من صغـــرى بناته تلك، وقد استدعى الملك الشيخ بناته الثلاث وقال لهن.

ـ إني أود أيتها العزيزات أن أقسم ملكـــي بينكن، **لكني أحب أن أعرف قبل ذلك مدى حبكن لي**، بأن تجيب كل واحدة منكـــن عــن ســؤال أوجهه إليها على انفراد!

وخلا الملك بابنته الكبرى (جنريل) وكـــانت فتاة خبيثة الطوية، مسرفة في الأنانية، ولم تكــن

تضمر لأبيها شيئا من الحب، ولكنها كانت تتودد إليه وتتملقه، طمعا في ميراثه، فلما سألها عـــن مقدار حبها إياه، قالت وهي تتظـــاهر بالحنـــان: أنت أعز علي من سواد عيني، وإنـــي لأفديـــك بنفسي، وأضحي في سبيلك بدمـــي، وأدعـــو الله أن يحفظك سالما من كل سوء! وخدع الملـــك لير بثناء ابنته الكبرى، وسر أعظم السرور بمـــا قالته، **وأعلن أنه يمنحها ثلث مملكته الكبيرة.**

وأما البنت الثانية (ريجان) وهي الوسـطى، فقد أجابت أباها على سؤاله، وكانت **أخبث مـــن أختها** وأكثر لؤما وطمعا بقولها: إني أحبك يـــا أبتاه قدر ما تحبك أختي جنريل إن لم أزد عليها،

وليس في الدنيا شيء يمكن أن يشغلني عن حبك، أو يجعلني أغفل عن التفكير فيك لحظة واحدة!

وفرح الملك لير بجواب ابنته الوسطى، وامتلأ زهوا وإعجابا بثنائها، **وأعلن لها أنه يمنحها ثلث ملكه،** لأنها جديرة بحب أبيها ومكافأته لها.

وجاء دور الصغرى (كردليا) وكانت فتاة طاهرة القلب، نقية النفس، مخلصة حقا في حب أبيها، ولكنها لا تميل إلى الغلو ولا تعرف الكذب، فأجابت أباها عن سؤاله بقولها: إنني أحبك يا أبي **كما تحب كل فتاة والدها!**

واستاء الملك لير من جواب ابنته الصغرى وكان ينتظر أن يسمع منها آيات المديح والثناء، كما سمع من أختيها المرائيتين، وعد قولها عقوقا، وركبه الغضب فطردها من مجلسه، ولم يدرك أن إخلاصها له هو الذي دفعها إلى ذلك الجواب، لكيلا تبدو متملقة مرائية عند تقسيم أبيها لملكه بينها وبين أختيها، وخرجت الفتاة الأبية محرومة من كل إرث، وأعطى الملك المخدوع نصيبها إلى أختيها إثر ذلك!

وعندما تبين للأمير الإنكليزي الذي كان يخطب كرديليا أنها لن تفوز من إرث أبيها وملكه بشيء تخلى عن طلب يدها، فتزوجت الخطيب

الثاني، ملك فرنسة، وحملها إلى بلاده، وقد أصر الملك لير على ألا يراها في قصره ثانية!

كان ملك فرنسة كبير الإعجاب بصراحة كرديليا وعزة نفسها وإبائها، ورفضها أن تبدو بمظهر المتملقة لأبيها لتنال منه نصيبها من ميراثه، وقبل أن تغادر كرديليا انكلترة مع زوجها إلى بلاده حاولت أن تودع أختيها الوداع الأخير، فلقيت منهما كل جفاء وخشونة وقال الملك لير لزوجها: اذهب بها إلى حيث تريد، فما أطيق رؤية وجهها بعد اليوم!

وكذلك تم **إعلان تقسيم المملكة بين الأختين الكبريين** وتخلى الملك لير عن ملكه

جميعه، ولم يترك لنفسه غير لقب (الملك) ولم يحتفظ بغير مائة فارس، ليكونوا حاشيته وأعلن أنه سينزل ضيفا على إحدى ابنتيه في الشهر الأول، ثم ينتقل إلى ضيافة البنت الثانية في الشهر الثاني، وهكذا سيقضي ما تبقى من أيام حياته في ضيافة ابنتيه العزيزتين! وكان للملك لير وزير حكيم عاقل اسمه (**كنت**) فحاول أن يصارح الملك بخطئه، فلم يلق منه أذنا مصغية، وغضب الملك على وزيره وطرده، وأمر بنفيه من المدينة، وتوعده بالقتل إن لم يرحل عنها!

وبعد أن أتم الملك لير توزيع مملكته وإرثه بدأ يعيش حياته على النحو الذي أراده: **فذهب**

إلى قصر ابنته الكبرى (جنريل) ليقضي الشــهر الأول في ضيافتها، ولكنه لــم يلبــث أن أدرك حقيقة ابنته التي كان الرياء والنفاق يسترانها عن ناظريه، ذلك أن جنريل بعد فوزها بمــا كــانت تطمع فيه من مال وسلطان، وبعد أن استقر لــها الملك لم تحرص على إخفاء لؤمــها وعقوقــها، وأصبحت تجد في أبيها وحاشيته الكبيرة عالــة عليها، وعبءا على خزينتها، واستكثرت علــى الملك الشيخ رجال حاشيته المائة، فراحت تتجهم له، وأصبحت تماطل في تلبية رغباته، وتسـتثقل ما ينفق على حاشيته من الفرســان وخيولــهم، واقتدى خدمها بها فــأصبحوا يعــاملون الملــك

الشيخ بقلة الاكتراث، ولا يلبون له طلبا، وكـــان الوزير الناصح الأمين الذي طرده الملك لير قــد انضم 'إلى خدم الملك متنكرا، ليظل إلى جـــانب مولاه يحرسه ويرعاه، حبا وإخلاصا ووفاء، وقد شهد الوزير المتنكر يوما استهتار واحد من خـدم جنريل بالملك الشيخ، وهـــو يجادلــه بوقاحـــة واحتقار، فثارت ثائرة الوزير الوفـــي، وصفـــع الخادم صفعة أدمت قفاه، جزاء علـــى تطاولـــه وسفاهته، فابتهج الملك لير لتأديب الخادم الوقـح، وسر لإخلاص خادمه الجديد، غـــير أن ابنتـــه جنريل أفلحت في إقناعه بأن يكتفـــي بعشـــرين فارسا لحراسته، فحياته آمنـــة وغـــير مـــهددة،

والحاشية الكبيرة نفقاتها ثقيلة علـــى ابنتـــه دون فائدة منها!

ثم عزم الملك لير على الانتقال إلى ضيافـة ابنته الثانية (ريجان) وهو يأمل أن يجد عندهـا من الإيثار والوفاء ما لم يجده عند الأولى، وقبل رحيله إليها بعث إليها رسوله ــ وهـــو وزيـــره الأمين المتنكر ــ ليخبرها بقدومه، وكانت أختها الماكرة قد وافتها بأخبار الأب الشـــيخ، وكـــثرة حاشيته وجلبتها وضوضائها ونفقاتها، فاســتقبلت ريجان رسول أبيها استقبالا جافا، فلما حــاول أن يذكرها بما لأبيها الشيخ الجليل من حقوق عليها، ثارت في وجهه غاضبة، وأمرت بحبسه عقابا له

على جرأته، فلما وصل الملك لير مع فرسـانه العشرين إلى قصرها لم يجد ما كان يرجوه مـن ترحيب بقدومه، وعلم بحبـس رسـوله فاشـتد غضبه، وراح يقرع ابنته العاقة ويؤنبها، فانبرت له قائلة:

خفف من غضبك أيـها الأب الشـيخ، وإن أختي لها كل العذر في نفاد صبرها من صخـب رجالك وعبثهم في قصرها، واقترافهم الشـرور والآثام، فقصور الملوك جديرة بأن تحفـظ مـن عبث العابثين وصخب اللاهين!

ولم يصدق الملك الشيخ ما سمعته أذناه مـن ابنته الثانية، وكاد يغمى عليه من فرط الأسـى

والحزن، لولا اعتصامه بالصبر، **وقد أدرك مدى خطئه في تنازله عن مملكته وثروتــــه لابنتيــه الجاحدتين!**

وقالت ريجان لأبيها:

ـ ما حاجة مثلك أيها الشيخ إلى مثل هــذا العدد الكبير من الحراس والجند؟ إني لأســـتكثر عليك خمسة، وأنت لن تحتاج إلى فارس واحــد، وإن خدمي يؤدون لك كل ما تريد، فما انتفـــاع مثلك بالحاشية!

وهنا اتضح لعيني الملك الشيخ ما كان خافيا من عقوق ابنتيه ونكرانهما، فاشتد سخطه، ودعـا

عليهما بأن تلقيا الجزاء العادل وسوء المصير، عقابا لهما على غدرهما، وعزم على الرحيل عنهما، مستسلما إلى أحزانه ويأسه ومصيره المجهول!

4

انطلق الملك لير هائما على وجهه في قلب الغابة، ولم يصحبه غير وزيره الأمين المتنكر في صورة خادم، وواحد آخر من خدم الملك، وكانت الليلة عاصفة شديدة البرد، كثيرة الأمطار، قاصفة الرعود، وقضى الرجال الثلاثة ليلة مروعة، وهم تائهون في ظلام الليل ودروب الغابة، حتى وصلوا إلى كوخ صغير يقطنه **(توم المسكين)** فدخلوه، وبعد قليل وصل الأمير **(جلستر)**الذي ظل مخلصا للملك لير، وقد جاء يبحث عنه ليأخذه إلى قصره القريب، وينقذه من

أعدائه المتربصين به، وكـان للأمـير جلسـتر ولدان: أحدهما (**ادجار**) وهو ابنه حقـا، وكـان مثال الوفاء، وثانيهما (**ادمونـد**) وهـو متبنـاه، وكان مثال العقوق، وقد رباهما معا فلما كبرا لـم يكن للثاني هم غير الوشاية بأخيه، لإيغار صـدر أبيه عليه، وليستأثر هو وحده بكل شيء! وقـد أوهم ادموند الأمير الأب أن ابنه إدجار طـامع في قتله وثروته، فطرد الأمـير ابنـه وتوعـده بالقتل، ولم يجد الإبن البار المظلوم بـدا مـن الهرب من وجه أبيـه، **فتنكـر فـي زي (تـوم المسكين)** وعاش في ذلك الكوخ الحقـير فـي الغابة، **وخلا الجـو لإدمونـد** ومكـره وخبثـه

وطموحه، **ولم يلبث أن أصبح مستشار المملكـة كلها**، وموضع ثقة الأميرتين الأختيـــن، ابنتـــي الملك لير، وقد أسهم في تأليب الأختيـن، علـــى أبيهما، للخلاص منه، ولم يجد الخبيث ما يردعه عن الوشاية بالرجل الذي تبنـــاه، فكـــان يبلـــغ الأختين أخبار الأمير جلستر ووفائــــه لأبيــهما، ويحذرهما منه، خشية من أن يمد يده إلى أبيــهما ويعينه على استرداد عرشه وأملاكه منهما! وقــد عجلت الأختان بالقبض علـــى الأمــير الوفــي لأبيهما، بعد عودته من لقاء الملك لير وتحذيــره من الأخطار المحدقة به، وألقـــي بـــالأمير فـــي السجن، وعذب عذابا أفقده نور عينيه، ثم رمــوا

به خارج السجن، وقد أصبح أعمى يتلمس طريقه بيديه! ولقيه (توم المسكين) على هذه الحال البائسة، وهو على الحقيقة ابنه الوفي إدجار ــ كما قدمنا ــ ففاض قلبه لوعة وحزنا على أبيه، وظل يلازمه ويرعاه، وإن لم يكشف له عن حقيقته. وقد صادفا في الحقول لير، وقد أصبح في حالة مؤسفة من الضياع والهذيان وسوء المآل!

كانت **أخبار مأساة الملك لير قد وصلت إلى مسامع ابنته الوفية الصغرى كردليا**، فأخبرت بذلك زوجها الحبيب ملك فرنسة، فهل يتردد في إعداد جيش كبير لتأديب الأختين الغادرتين

والتنكيل بهما، **وأسرعت كرديليا مع الجيش لنجدة أبيها** وإنقاذه، وقد استطاعت الفتاة البارة الحنون أن ترد إلى أبيها الذاهل وعيه، فعرفها واعتذر لها نادما عن ظلمه لها، وعرف صدق حبها العظيم له، والتقى الجيشان: جيش الأختين الغادرتين وجيش كرديليا في معركة طاحنة، كان الفوز فيها للخبثاء الثلاثة جنريل و ريجان ومستشارهما إدموند الذي قاد الجيش وأحرز النصر، وأسر كرديليا وأباها الملك لير، وأودعهما السجن.

وكان زوج جنريل، الأمير **(ألباني)** رجلا طيب القلب، فأصر على إطلاق سراح

الأسيرين، وأصر إدموند على بقائهما في السجن، وغضب الأمير (ألباني) ودعا إدموند للمبارزة، وبينما الجمع في هذا الموقف الغاضب امتشق إدجار – ابن الأمير جلستر – سيفه ودعا إدموند إلى مبارزته قائلا:

– هلم أيها القائد لتكتب آخر صفحة في تاريخ حياتك المملوءة بالشرور والدنايا والأرجاس! واهتاج إدموند للإهانات التي صبها عليه الرجل الذي يدعوه إلى المبارزة فجرد سيفه ودارت رحى قتال مستميت بين الرجلين وعاجل إدجار خصمه بطعنة قاتلة جعلته يهوي إلى الأرض مضرجا بدمائه وأغمي على ريجان

فزعا وكانت **أختها جنريل دست لها السم قبيل ذلك لتستأثر بالملك وحدها** وهكذا سقطت ريجان إلى الأرض بلا حراك وعندما رأت جنريل انهيار آمالها بمصرع إدموند الذي كان معقد أملها للتفرد في الحكم عاجلت نفسها بطعنة قاتلة وهكذا توالت مصارع الخبثاء الثلاثة مودعين باللعنات لما جنت أيديهم من الشرور والآثام.

وأسرع الأمير المنتصر إدجار لإنقاذ الأسيرين : كردليا وأبيها الملك لير ولكن القضاء كان أسرع منه إلى تلك الفتاة الطاهرة التي لقيت حتفها مصلوبة في السجن قبل أن تصل إليها أيدي المنقذين! **واستولى الذعر والخبال على**

الملك لير فحمل جثة ابنته بين يديه وهو يبكي بكاء تتفطر للوعته أقسى القلوب!

وهكذا ختمت مأساة الملك لير بالدموع والهذيان والجنون حتى لفظ الشيخ المسكين أنفاسه الأخيرة وقد طحنت الأحزان قلبه وأسلمته إلى الموت.

المحتوى

أعلام مبرّزون

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

١ – الاسكندر الأكبر
٢ – هنيبعل
٣ – أبو العلاء المعري
٤ – ابن بطوطة
٥ – ابن خلدون
٦ – كريستوف كولومبوس
٧ – وليم شكسبير
٨ – نابليون بونابرت
٩ – ليون تولستوي
١٠ – المهاتما

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والمصورات
بيروت ـ لبنان ـ ص.ب ٦٩١٨ / ١١
حلب ـ سوريا ـ ص.ب ٤١٥